

الغاندية



نب
2022



يا عمال العالم، اتحدوا

طريقا للبشافية



موقع أممي للإعلام البشافي باللسان العربي

الغاندية



القيروان، أيلول 2022

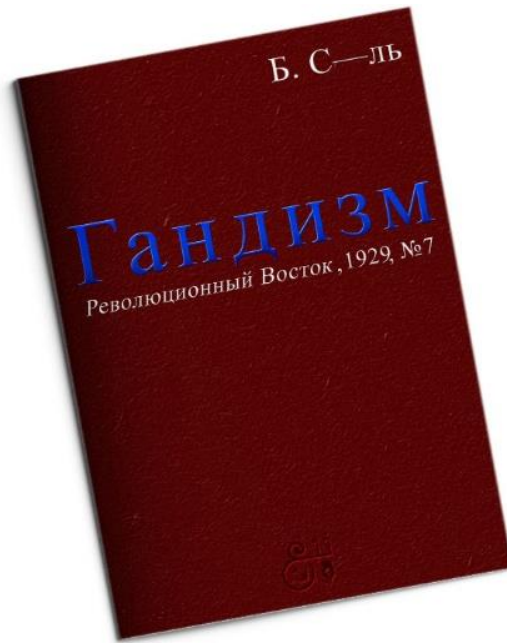
نشر البشافي العربي

المصدر المعتمد في الترجمة

مقال من مجلة الشرق الثوري، سنة 1929، عدد 7

Б. С—ль.: Гандизм.

Революционный Восток, 1929, № 7, стр. 117—137.



المحتويات

1. النظرية الغاندية.....7
2. الجذور الاجتماعية للغاندية.....12
3. الغاندية في الممارسة.....17

استند هذا المقال إلى كتابات غاندي نفسه وهي الهند الفتية 1919-1922 (وهو عبارة عن مجموعة مقالات غاندي كان قد نشرها في مجلته بذات الإسم)، والدين والأخلاق ودليل الصحة، والمهاتما غاندي: حياته وكتاباته وخطاباته. وثلاثتها صدرت عام 1922. — الكاتب.

لقد كانت سنوات 1919-1922 في الهند فترة أعظم موجة في نضال التحرر الوطني. فقد كانت الفكرة القومية، إلى حدود ذلك التاريخ، منحصرة في حلقة ضيقة من البرجوازية الليبرالية والمثقفين البرجوازيين الصغار. لقد تعاونت البرجوازية الليبرالية مع الإمبريالية البريطانية وساعدتها أثناء الحرب أملا في أن تحصل على منزلة جيدة إن لم يكن ذلك كامل النفوذ في البلاد أو المشاركة في تقرير مصير البلاد على الأقل. أما المثقفون البرجوازيون الصغار فقد شرعوا يتآمرون وينفذون بعض الأعمال الإرهابية حاليين بأن "تصبح الهند أرضا لا يطبقها البريطانيون" وبأن "يرحلوا عنها". وبمعزل عن هذين الاتجاهين، كانت هنالك انتفاضات الفلاحين وقمر جنود الجيش المحلي الذي تواتر أثناء الحرب. لكن الاضرابات العمالية التي نشبت على نحو منقطع خلال عام 1919 كانت كانت قد دشنت مرحلة جديدة في تطور الثورة الهندية. وأصبحت فكرة التحرر الوطني تسيطر على الملايين من السكان. لكن البرجوازية الوطنية، التي خاب أملها في اصلاحات ما بعد الحرب والتي لم تمنحها أي نفوذ، وقفت على رأس الثورة لتجهز عليها لاحقا. وهكذا ظهرت انتفاضات الفلاحين واضرابات العمال الهائلة ومظاهرات الطلبة ومقاطعة البرجوازية المحلية لمنتجات البريطانيين ومؤسساتهم، ظهر كل ذلك كتيار عام من جانب حركة جماهيرية قوية تشن هجوما وطنيا على المضطهدين الأجانب في بلد يفوق تعداد سكانه ثلاث مائة مليون نسمة. والمؤتمر الوطني الهندي هو القوة المنظمة والمركزة للحركة الوطنية. وغاندي هو زعيم المؤتمر الوطني الهندي ومنظره.

1. النظرية الغاندية

ليس في نظرية غاندي الاجتماعية ما هو جديد ومتميز عن التعاليم الرجعية-الطوباوية التي كان تولستوي أكبر ممثل لها هنا في روسيا. وما من شك في أن غاندي يدين لتولستوي بأساس تعاليمه.

إن التبشير بالأخلاق الدينية هو الخلفية العامة لتعاليم غاندي. فوق تصور "لا أهمية للسياسة إذا ما انفصلت عن الدين". وهو، شأنه شأن تولستوي، لا يعتبر الدين كنظام من الطقوس بل كنظام من المعايير للسلوك الأخلاقي عند الإنسان. ولا يقيم غاندي تفرقة بين الأديان فيدعم تصريحاته بآيات من القرآن أو الإنجيل أو النصوص الهندية بذات الطريقة. وهذه الخاصية بالذات في تعاليم غاندي، رغم أنها مغرقة في الرجعية في حد ذاتها، كانت قد لعبت، لزمن معلوم، دورا إيجابيا في إضعاف التشدد الديني الذي كان دوما كان أضمن سلاح في السياسة البريطانية في الهند، وفي تسهيل توحيد جميع أقسام الشعب الهندي على أرضية النضال ضد البريطانيين.

أما الخاصية الثانية في تعاليم غاندي فهي اعتبار العصر الوسيط الهندي المثال الأعلى. "لم تكن عندنا منافسة تستنفذ كل طاقتنا. بل كان لكل منا عملا بعينه ويقبض مقابله أجرا ثابتا. فلا يتعلق الأمر بأننا لا نستطيع أن نخترع الآلات. وإنما كل الأمر أن أسلافنا كانوا على بينة من أننا إذا ما قصدنا هذه الأشياء سنصبح عبدا ونخسر هيبتنا الروحية. لذا، فقد قرروا، بعد تأمل ناضج، ألا يستخدموا أيديهم وأرجلهم... وفضلا عن ذلك، فقد شعروا بأن المدن الكبيرة فح وعيب لا حاجة لهم به وسكانها لن يكونوا سعداء إذ سيكثر فيها اللصوص والصعاليك وسيزدهر فيها البغاء والرذيلة وسيسرق فيها الأغنياء الفقراء. وبسبب كل ذلك فقد اكتفوا بقرى صغيرة. ولقد رأوا أن الملوك وسيوفهم أضعف من الأخلاق. فحسوا الحكيم والزاهد (الصالح المحتاج

والفقير) بمنزلة أعلى من منزلة الحاكم الدنوي... لقد كان العدل قائماً بقدر معين... وكان الناس البسطاء يعيشون على نحو مستقل على الزراعة وكان لهم حقاً حكم ذاتي".
بهذه اللوحة الوردية يصور غاندي الاستبداد الشرقي والنظام الاجتماعي في الهند القديمة، والذي قال فيه ماركس: "لقد كانت هذه المجتمعات الريفية المثالية، بغض النظر عن الحد الذي قد تبدو فيه غير ضارة، دوماً، الأساس المتين للاستبداد الشرقي، فقد حصرت العقل البشري في أضيق الحدود، مما جعله أداة خاضعة للخرافات، وخاضعة للقواعد التقليدية، وحرّم من من كل العظمة والطاقة للعمل التاريخي". وها أن غاندي يبشر الهند الحديثة بهذا المثل الأعلى من الحياة الأبوية. فهو لا يتخرج من استحالة إرجاع عجلة التاريخ إلى الوراء. "قد يبدو كل هذا عبثاً. حسن، إن الهند أرض العبث. فمن العبث أن يترك المرء حلقة يحفّ عطشا في الوقت الذي يكون فيه المسلم الصالح مستعداً لتقديم الماء الصالح للشراب. وفي أيامنا، يفضل آلاف الهندوس الموت عطشا على أن يشربوا الماء من منزل مسلم.

فإذا كان النظام الاجتماعي في الهند القديمة قد ظل شامخاً إلى هذا الحد، فيجب الإعتراف وحماية كل أشلاء الماضي من التحطّم تحت ضغط مجرى التاريخ. إن الأثر الأكبر أهمية والأكثر تعقيداً في ذات الوقت من جملة المؤسسات القديمة في الهند الحديثة هي الطائفة. فأغلبية سكان الهند الساحقة، أي أكثر من مائتي مليون نسمة، منقسمة إلى طوائف مختلفة منعزل بعضها عن بعض وبعادي بعضها بعضاً.

لقد نجحت قوى التطور الاقتصادي في المدن في أن تسدّد ضربات قوية للنظام الطائفي وأن تحدث شروخاً عميقة في حاجر الطائفية. لكن في الريف لا تزال الأفكار المسبقة الطائفية صامدة وتمثل أكبر عائق أمام تنظيم الفلاحين. وفي الريف الهندي هنالك حوالي 40 مليون فلاح ينتمون إلى ما يسمى بالطوائف الدنيا التي لا يحق لها أن تستغل مياه الآبار العمومية وملزمة بالسير محاذة للطرق في القرية والاستحمام في برك الماء وتدرّس الأطفال في المدارس القروية. وأية صلة مباشرة بأحد أعضاء طائفة دنيا يعدّ وسخاً عند هندي محترم. وإن غاندي يبشر بالقضاء على الحيف الطائفي

اليومي. لكن غاندي يدافع عن استمرار أساس ذلك الحيف: المؤسسة الطائفية نفسها، لأن غاندي يعلم أن الأفكار المسبقة عند ملايين الناس إنما هي قوة هائلة. وغاندي لمستعد لاستخدام أكثر بقايا العصر الوسيط الهندي تحلفا، الأفكار المسبقة الطائفية عند ملايين الناس، حتى يربح دخول حضارة العالم الحديث "الشيطنانية" الهند المقدسة. فإذا لم يكن بإمكان المرء أن يرجع إلى الوراء، فربما بإمكانه أن يظل حيث هو؟ وإنما لنصل هنا إلى النقطة الأساسية في نظرية غاندي الاجتماعية.

إن تمجيد غاندي ماضي الهند الأصيل ليس إلّا حقدا واعيا على حضارة الغرب المادية. فهو ينبذ رذائل المجتمع الحديث: الحروب والدعارة والأخلاق السيئة والبحث عن الربح. يقول غاندي: "لقد التف نظام القروض حول أرضنا التفاف الشعبان. وإن لم نتوخى الحذر، سيطبق على أنفاسنا حتى الموت". ولقد كان أكثر قسوة غاندي انصبت على الأساس المادي للثقافة الحديثة: الآلة. يقول غاندي: "لقد شرعت الآلة تدمر الغرب... الآلة هي رمز الحضارة الحديثة الرئيسي... لقد أصبح عمال مصانع بومباي عبيدا. وحال العاملات في تلك المصانع مخزي. فلما لم تكن هنالك مصانع، لم تكن هنالك نساء تتضورن جوعا. فيما مضى كانت الهند ترفض البضائع المستوردة. "واليوم حتى آلهتنا تصنع في ألمانيا". فحسب غاندي، كل مآسي الهند سببها سكك الحديد. فقد انتشر بفضل سكك الحديد الطاعون واضراب الجوع. ولم يستطع البريطانيون الاحتفاظ بالهند إلا عبر سكك الحديد. فإذا كانت إمكانية انقاذ البلاد لم تضع بعد، فذلك فقط لأن ملايين الفلاحين الهنديين لا يزالون يحرقون الأرض بالحرث الخشبي. إن غاندي يقرأ "الفنجان"، فيقترح توفير مغزل لكل بيت وعند كل عائلة ريفية.

يعتقد غاندي أن الصراع الطبقي من منتوجات الحضارة الغربية. ويمكن للهند أن تكون خالية من هذا الشر، بل يجب عليها ذلك. لذا، عوض الصراع الطبقي، يبشر غاندي بالسلم والمقاومة السلبية. وهذا هو الجوهر السياسي في تعاليم غاندي. فإذا ما وجد عامل أن مشغله لا يعامله معاملة عادلة، فإن غاندي ينصحه بأن يجلس أرضا ويقول: "سيدي، أريد العدل وإلا لن أشتغل، أعطني أكلا أو ماء إن أردت، أو أبقى هنا

أتصور جوعا وعطشا"، وإن غاندي ليؤكد للعامل كيف أن "أقصى القلوب ستلين"! ويخاطب غاندي الأسياد البريطانيين قائلا: "لکم عتاد عسكري كبير. وما من منافس لقوتكم البحرية. ولو أردنا محاربتكم هنا لكننا من الخاسرين. لكن إن لم تقبلوا بمطالبنا، فحينها نكف عن أن نقوم بدور المحكوم. بإمكانكم أن تقطعونا إربا إربا إن أردتم. وبإمكانكم أن تتخذونا ذخيرة لمدافعكم. لكن إن تصرفتم ضد إرادتنا فلن نساعدكم، وأنا لنعلم أنكم لا تستطيعون التقدم خطوة دون مساعدة منا".

أخلاق دينية وقرية مكتفية بذاتها ومعطف صوفي ومقاومة الشر ومقاومة سلبية، ذلك هو ميثاق الغاندية. وهي من حيث الأساس ذات الخصائص التي تميز اتجاه تولستوي. وإنه من المناسب أن نطبق على غاندي تقييم لينين تعاليم تولستوي. يقول لينين: "لا جدال في أن تعاليم تولستوي طوباوية. وهي من حيث محتواها رجعية بأدق معنى الكلمة وأشمه". لكن تولستوي الفنان العظيم كان يملك عنصرا نقديا كبيرا والذي يمكن في مرحلة بعينها من التطور، مثلاً لاحظ لينين، "أن يفيد عمليا أفساما من الناس رغم ما لمذهب تولستوي من سمة رجعية وطوباوية". لكن غاندي لم يكن يحدق فن الخطابة، وإنما كان يشهر كرهه للحضارة الحديثة بمدح الماضي أكثر من كشف شرور المجتمع الرأسمالي. وبالتالي فإن حديث لينين عن مذهب تولستوي إنما ينطبق جيدا على غاندي: "إيديولوجيا النظام الشرقي، النظام الآسيوي، إنما هي تعاليم تولستوي من حيث محتواها التاريخي الحقيقي". لا نجد عند غاندي، تقريبا، نقدا لادعا للاستغلال الإمبريالي للهند، والقمع البوليسي، وإهانة السكان، وكل ما يميز النظام الاستعماري. فلا أثر للعناصر النقدية في تعاليم غاندي صلب الشعب. فلم يأخذ غاندي من تعاليم تولستوي إلا الناحية السلبية ليحولها عقيدة. وإن تعاليم غاندي، التي اتضحت ملامحها بداية هذا القرن على إثر الحرب، شقت طريقها في عمق الجماهير الهندية لتصبح بالفعل إيديولوجيا ملايين الناس، لا يمكننا أن نرى فيها مجرد حدث عرضي قام على ما لشخصية غاندي من ميزات. الجذور الاجتماعية للغاندية وسبب

تأثيرها في الجماهير إنما يرجع كل ذلك إلى الظروف التاريخية التي هيأت الهبة الأولى
لثورة الهندية في سنوات 1919-1922.



المؤتمر
التليوغي
العالمي
السادس

ترجمة
محمد علي العربي نضال الحديكي

دار النشر بالمشقة العربية

Une édition au format **HTML** 
Téléchargez et décompressez le fichier  2022

2. الجذور الاجتماعية للغандية

"إن التشاؤم، وعدم المقاومة، مناشدة "التعقل" تؤلف كلها أيديولوجيا لا مفر منها في زمن "انقلب فيه النظام القديم رأساً على عقب"، وعندما تكون الجماهير، التي نشأت في ظل هذا النظام القديم، قد تشربوا في حليب أمهاتهم مبادئ هذا النظام القديم وعاداته وتقاليده ومعتقداته، فلا يمكنهم رؤية أي نوع من النظام الجديد "قد شرع يتكون"، وأية قوى اجتماعية "تكوّنه" وعلى أي نحو، وما هي القوى الاجتماعية القادرة على انتزاعهم من الضائقة الشديدة التي لا حد لها والتي تميز فترات "الاضطراب"،" (لينين: تولستوي وزمنه)

لقد اكتسب مسار تطور الرأسمالية وتفكك النظام الاجتماعي القديم في الهند خصائص مميزة. فأولاً، وبسبب طبيعة البلد كمستعمرة، " فالنتائج المدمرة التي يجلبها في كل مكان التطور الرأسمالي، خاصة في أولى مراحل وجوده، يعاد إنتاجها في المستعمرات بدرجة مرعبة وبسرعة متزايدة بفعل تغلغل رأس المال الأجنبي. إن التقدم الذي أحدثته الرأسمالية، على العكس، لم يقع بصفة عامة تحسسه أبداً". (مشع 6؛ أطروحات في الحركة الثورية في المستعمرات وأشباه المستعمرات، فقرة 9). وفي جميع البلدان الرأسمالية الكلاسيكية، وبالتوازي مع إفقار الفلاحين وتفكك الصناعة الحرفية، ينشأ مسار نمو سريع في الصناعة الحضرية لتستقطب جمهور المنتجين الصغار بعد أن أزجحوا من الريف والحرف وليؤلفوا البروليتاريا. لكن مثل هذا المسار في الهند مؤلم جداً. فنظراً لبطء التطور الصناعة المشروط بسياسة الإمبريالية. والحرفي المفلس لا يجد لنفسه مكاناً في المصنع، فيجبر على التوجه نحو الريف الذي بدوره أصبح مكتظاً. فيجد ملايين الفلاحين المجريدين من الأرض أنفسهم خارج مسار الإنتاج فيموتون ببطء من الجوع والأوبئة.

ثانياً، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار نمط الحياة الآخذ في التفكك في الهند. فالأوتوقراطية الآسيوية في شكلها القيصري لها جنة مقارنة بالنظام الذي لا يزال مزدهراً إلى الآن في الولايات المحلية الرئيسية، والذي يشمل ثلث أرض البلاد و70 مليون نسمة من مجموع السكان. ونظام القناة إنما هو حمل وديع مقارنة بنظام الطوائف القائم في الريف الهندي منذ ألف عام. فالرأسمالية الآسيوية في شخص الكولاك، إنما هي لا شيء مقارنة بالاضطهاد الذي يمارسه رأس المال الربوي الذي يبسط نفوذه على 90% من الفلاحين في الهند.

ثالثاً، من الذي يحطم النظام القديم ويبشر بالرأسمالية في الهند؟ ليست برجوازية محلية ضعيفة قد نشأت ببطء من رحم التجارة والرب، بل إمبريالية أجنبية قوية، رأس مال مالي احتكاري إنجليزي قوي وقوي جداً. إن الجماهير التي تربت في ظل النظام القديم في روسيا لم ترى، وما كان بإمكانها أن ترى، "التناقض الذي يفسر الثورة الروسية على أعمق نحو، التناقض بين ملكية الأراضي الأكثر تخلفاً والقرية الأكثر وحشية من جهة، والرأسمالية الصناعية والمالية الأكثر تقدماً، من جهة أخرى". (لينين).

أخيراً، خصوصيات هذه الحقبة الأخيرة في الهند. فحقبة انقطاع العلاقات التقليدية في الريف الهندي، كانت قد امتدت تقريباً من نهاية القرن الماضي إلى نهاية الحرب العالمية. ولقد ظهرت الصناعة الكبيرة في الهند في السنوات الأولى من هذا القرن. ولقد أجبرت الحرب الإمبريالية البريطانية على تغيير سياستها القائمة على الإبطاء من وتيرة تطور الصناعة الكبيرة. فعظمت وتيرة نموها وشملت فروعاً جديدة من الإنتاج. لقد جرى إفقار الفلاحين لما كانت الأسعار المتدنية لمنتجات زراعات التصدير عند بداية الحرب مقابل الارتفاع العام في الأسعار مع نهايتها والضرائب المرتفعة. وسرع بدرجة كبيرة مسار تجريدهم من الأرض وإفقارهم. ولقد بدأ استيراد البضائع البريطانية إلى الهند في عشرينيات القرن الماضي. ولقد سدد ضربة هائلة للصناعات الحرفية المحلية

التي شرعها دورها في مجمل اقتصاد البلاد يتراجع باستمرار. لكن استيراد السلع الأجنبية لن يقضي كليا على الصناعة الحرفية المنتشرة في كامل الهند.

حسب الإحصاء الرسمي، كان عدد المشتغلين في الصناعة الحرفية الهندية في مطلع عام 1911 كان 17 مليون ونصف. أما عدد عمال المصانع الحديثة فبلغ 3 ملايين. ولم ينقذ الحرفيين من الإفلاس ما حصل أثناء الحرب من تراجع المنافسة وغلاء البضائع الصناعية. بل على العكس، فقد أثبتت الصناعة المحلية، التي سيطرت على جميع مجالات الإنتاج وتوغلت عميقا في البلاد، أنها منافس الحرفيين وهي أكثر شراسة من الرأسمالية الأجنبية. وتشير الأرقام إلى أن عدد المشتغلين في الصناعة الحرفية خلال العقد 1911-1921 قد انخفض بمقدار 2 مليون نفر أي بنسبة 12%. وهو ما يعني تقلصا كبيرا في القطاع الحرفي بسبب نمو الصناعة. وفي البنغال تراجع عدد المشتغلين في حرفة النسيج بنسبة 23% خلال العقد الماضي.

إن تغلغل الرأسمالية في الزراعة، واكتضاض الريف، وتمييز كل من الفلاح الصغير والمزارع الرأسمالي والأجير الوراقي إنما هو مسار طويل تتطلب عدة عقود في كل البلدان الرأسمالية العريقة ولم ينتهي إلى نفي الفلاح الصغير نهائيا في أي بلد باستثناء إنجلترا. أما الحرف فأمرها مغاير. فلم تمهلها الرأسمالية وقتا طويلا. ويمكننا أن نحس مباشرة بهول السرعة التي يجري فيها القضاء على صناعات حرفية بأكملها واختفاء مئات الآلاف من الحرفيين.

إن مسار تفكك بنية اقتصاد الهند الذي كان قائما منذ آلاف السنين، والأشكال الخصوصية لمجرى ذلك التفكك في بلد مستعمر، والمرحلة التاريخية العالمية التي يجري ضمنها، كل ذلك ترك بصمته على الثورة الأولى في الهند وأنتج الأيديولوجيا الغاندية. لقد حدد لينين ثورة 1905 الروسية في مقال يتناول فيه الإنتفاضة الإيرلندية كما يلي: "كان قوامها جملة من المعارك خاضتها جميع الطبقات والمجموعات والعناصر الساخطة من السكان. ولقد كان من ضمنها جماهير تحمل أكثر الأفكار المسبقة وحشية تناضل في سبيل أكثر الأهداف غموضا وروعة، وكانت هنالك مجموعات تتلقى الأموال من

اليابان، وكان هنالك مضاربون ومغامرون، وغيرهم". (لينين: خلاصة مناقشة حق الأمم في تقرير مصيرها، فقرة 10). لكن ثورة 1905 الروسية لم تشهد وما كان لها أن تشهد خليطا وحشيا من أشكال النضال الغامضة والرائعة على النحو العائل الذي بلغته في ذلك الحركة الوطنية الثورية في الهند في سنوات 1919-1922. لقد تفجرت انتفاضة فلاحية في إحدى المناطق تحت شعار الحرب المقدسة بين المسلمين والهندوس. وصورة ذلك أن قبيلة مسلمة (اقليم مالابار) بأكملها انتفضت على المالكين العقاريين شبه الاقطاعيين الهندوس وأقامت فيهم مذبحه، وقامت بخصي رجال الربا (ومعظمهم من الهندوس أيضا) وبعد ذلك شرعت تشن حرب عصابات على الجيش الحكومي في الجبال طيلة أشهر ولا ينتهي الصراع إلا بانقراض تلك القبيلة بأكملها، أو استسلامها ونفيها بأكملها في جزر أندامان. وفي منطقة أخرى، طائفة أكالي، وهي تضم كثيرا من الجنود الذين شاركوا في الحرب العالمية، فجرت حركة لإصلاح إدارة المعبد. وإذا بمظاهرة تضم عشرات آلاف من طائفة أكالي تتجه نحو المعبد. فطوقهم الجيش وهم جالسون أرضا وقادهم إلى السجن دون أن يبدوا مقاومة. وصورة القضية هنا أن الأرض كانت قديما على ملك القبيلة، لكن لاحقا اسملكها رجال المعبد. وحتى الحركة العمالية في المدن تعكس خصوصيات الوضع التاريخي الهندي. فلم يضرب العمال عن العمل، لكنهم "توقفوا عن العمل" مع أصحاب مصانعهم وصغار التجار الذين قاطعوا البضائع البريطانية. وإننا لنجد نفس الخصائص في مذهب غاندي. مظاهرة منتج صغير مستقل أفلس وغادر دورة الإنتاج. حقد الحر في على الآلة كسبب مباشر للآسيه. والتخبط الذي يصيب فلاحا وقد وجد نفسه وزوجته وأبنائه في مصنع في الزمن المبكر للرأسمالية ليوم عمل من 16 ساعة ومحل مظلم رائحتها كريهة وكل حركة غير موزونة فيها تؤدي إلى أذى خطير أو الموت لغياب أدني تدابير الصحة والأمان. وعجز الجماهير الفلاحية المشتتة عن مواجهة قوة رأس المال المالي الغاشمة الذي لا يتوقف عن التقدم، وهو أحد أقوى رؤوس المال مالي مدجج بالسلاح ولا يتردد في استخدام أكثر انواع الردع وحشية لضمان هيمنته (تهديد مدينة أمريتسار في ولاية البنجاب).

كل ذلك مجتمعا إنما يفسر على نحو كاف ما في تعاليم غاندي من تناقضات وفكرة المقاومة السلبية، ورفض المجتمع الحديث وما يحويه من تقدم تكنولوجي وصراع طبقي، وتمجيد النظام القديم الآسيوي. ومن خلال كل ذلك، كان مذهب غاندي انعكاسا للمسار الذي كان يتطور بالفعل في الهند في ذلك الوقت. لكن لماذا كسب غاندي كل ذلك الاحترام في الوقت الذي أبدى فيه جبنًا كلما تعلق الأمر بنقد المظالم الملموسة التي يمارسها النظام الاستعماري والتي تخنق الهند؟ لأن غاندي صحة مريديه، إذ كان يعكس في تعاليمه إيديولوجيا المزارع والفلاح المفلس والمدمر، إنما كان مرتبطًا، في كامل نشاطه العملي السياسي، قبل كل شيء، بالطبقات الهندية السائدة. وذلك ما يفسر غياب العنصر النقدي الذي نلاحظه أيضا عند تولستوي. ثم إن الغاندية من الناحية النظرية إنما هي رجعية، وهي من الناحية العملية، وقد كان لها أثرًا في نشاط الجماهير السياسي، إنما هي أكبر عائق أمام تحرر الجماهير وتحولت موضوعيا قوة مضادة للثورة. ويشهد على ذلك كامل تاريخ الثورة الهندية الأولى.

3. الغاندية في الممارسة

تعود أول محاولة لتطبيق نظرية غاندي في الواقع في مطلع هذا القرن لما كان غاندي في جنوب إفريقيا يناضل في ضد تجريد الهنود المحليين من حقوقهم في البداية في ظل جمهورية البيض ولاحقا في ظل الحكومة البريطانية. ولقد كان الهنود المحليون في جنوب إفريقيا يتألفون من أجراء زراعيين يشتغلون بعقود، ومن تجار صغار ومن قسم صغير من أصحاب المهن الحرة (محام، طبيب، الخ).

لقد كانت البرجوازية البيضاء المحلية (الفلاحية والإنجليزية) محتمة بتوريد عمال هنود للعمل في المناجم والمزارع فقد كان من الصعب استمالة السود الأصليين الذين كانوا لا يزالون يعيشون حياة قبلية. لكن تلك البرجوازية لم تكن تهتم لبقاء العمال الوافدين في البلاد بعد انتهاء عقودهم. وزاد ذلك في تعقيد القضية القومية التي كانت في غاية التقيد أصلا وأدى إلى منافسة رأس المال التجاري المحلي. وبالإضافة إلى ذلك، فإن ما يتمتع به العامل الهندي الحر من أجر مرتفع واستقلالية، سيثير "العدوى" في سلوك الأجير الزراعي المتعاقد، والذي أصبح غير راض على أوضاع عبوديته المأجورة، وشرع ينظم الاضرابات. ولقد ركزت البرجوازية المحلية الإنجليزية-الفلاحية البيضاء نظاما كاملا من التدابير (الحد من جولان الهنود، منع شراء الأرض، تجميع الهنود في أحياء خاصة بهم في المدن، ضريبة الرأس محففة بالنسبة للهنود، الخ)، الغرض منها اجبار الهنود الذين بلغت عقودهم الأجل على العودة إلى بلدهم. ولقد خاض غاندي نضالا ضد ذلك التشريع عبر المقاومة السلبية بعد أن فشل في التفاهم مع السلطة المحلية.

ومن الضروري أن نشير هنا إلى إحدى خصائص غاندي كرجل تكتيك. فهو يفهم أهمية النشاط الجماهيري وهو على صلة مباشرة بها ويتكلم لغتها ويعلم أفكارها المسبقة ويحذق استخدامها. وذلك مفتاح دور غاندي اللاحق في الحركة الثورية. لقد ناضل

الهنود في سبيل مساواتهم في الحقوق مع البيض في جنوب إفريقيا قبل وصول غاندي. لكن ذلك النضال كان منحصرا في حفنة من المثقفين الهنود والبرجوازيين الصغار. أما غاندي، فقد دعا جماهير العمال المتعاقدين إلى الإضراب وتنظيم المظاهرات بعشرات الآلاف منهم. وخلال هذه الحركة الاحتجاجية التي تواصلت على مدى عقد كامل وبنجاح متفاوت، لم يصغ غاندي ولو مطلبا اقتصاديا واحدا لصالح العمال الزراعيين المستغلين بوحشية. وعلى العكس من ذلك، كان كامل جهده موجه إلى ألا يطالب العمال الزراعيون بمطالب "غير عادلة" وأن يلجم تصاعد حقدهم على البيض بآلا يتجاوزوا إطار التظاهر السلمي. ولقد كان العمال يستجيبون لندائه لأن ما من أحد هنالك ليكشف أكاذيبه والطبيعة الرجعية لما يبشر به وليبين لهم طريقا آخر. فلأجل تحديد سلوك غاندي طيلة تلك الفترة وجب أن نبرز حدثين. فعندما نشبت الحرب على الفلاحين البيض نظم غاندي فصيلا هنديا وساعد بنشاط الإمبريالية البريطانية على خنق الجمهوريات الصغيرة المستقلة. كما شارك غاندي في قمع انتفاضة مملكة الزولو. ومما يرسم جيدا صورة غاندي إنما هو وضع آخر أصر غاندي على أنه تكتيك صحيح. وصورة ذلك يرويها غاندي كما يلي: "خلال حركة "قوة الحقيقة" (حركة المقاومة السلبية) في إفريقيا الجنوبية، أضرب عدة آلاف من الأجراء الزراعيين المتعاقدين. ولقد سار الإضراب تحت شعارات "قوة الحقيقة" وبالتالي كان إضرابا سلميا تماما وطوعيا. وفي الأثناء قام عمال المناجم وسكك الحديد الأوروبيون بإضرابهم. ولقد طلب مني أن نقيم مع العمال الأوروبيين جبهة. وبصفتي نصير "قوة الحقيقة" (نصير المقاومة السلبية) لم أستغرق ولو دقيقة لأرفض. بل ذهبت أبعد من ذلك فأوقفت الإضراب، حتى لا يقع الخلط بين إضرابنا وإضراب الأوروبيين الذي استخدام العنف والسلاح فيه هو السائد. ومنذ ذلك التاريخ أصبح الأوروبيون يعتبرون "قوة الحقيقة" حركة شريفة ومشرفة. وهي حسب تعبير الجنرال سميت "حركة دستورية".

رفض مساعدة المضربين، وإيقاف الإضراب، والثناء على الجنرال سميت لاعترافه بدستورية "قوة الحقيقة" وهو الذي سن التشريعات المعادية للهنود في جنوب إفريقيا!

الحق يصعب أن نعثر على كذب أكثر وقاحة وخسة ومضرا لمصلحة العمال مما تقدم الغاندية.

جميع خصائص التكتيك الغاندي الرئيسية اتضحت هنالك في جنوب إفريقيا. لكن الغاندية لم تكتسب أهمية تاريخية إلا في الهند. ففي جنوب إفريقيا لم يخطر في الحركة إلا بضعة آلاف، لكن في الهند جر غاندي جماهير تعد بالملايين. فقد نشأ مسار حركة ثورية قوية جعل غاندي على رأس هبة ثورية لكن ليخونها لاحقا بكل خزي، فتتكشف تماما جوهر الغاندية المتآمر.

* * *

لا يمكننا في هذا المقال أن نتوسع في عرض تفصيلي لتاريخ الحركة الوطنية الثورية في الهند. ولقد جرى عرض الظروف الموضوعية اللازمة لاندلاع الثورة الهندية الأولى في خطوطها العريضة أعلاه. أما الدفعة المباشرة التي فجرت طاقة الجماهير الثورية فقد كانت مجاعة 1918 الرهيبة والتي أجهزت على 12 مليون نسمة. وحرب إنجلترا على تركيا التي تسببت في إهانة الهنود المسلمين والمذبح التي اقترفتها إنجلترا في حق سكان مدينة أمريتسار (في ولاية البنجاب) وقد تجمعوا في مسيرة احتجاجية سلمية في أبريل 1919.

كانت القيادة التنظيمية للحركة بيد البرجوازية الصغيرة التي يمثلها المؤتمر الوطني الهندي. لكن الحركة كانت في الواقع تحت سيطرة البرجوازية الوطنية باعتبارها الطبقة السياسية الوحيدة الواعية في البلاد. ولقد برز تأثير غاندي في الحركة باكرا، منذ 1918. ولقد دشّن ذلك بتعاون كبير مع الإمبريالية البريطانية وقد تعاطف معها بقوة أمام ما اعترضها من صعوبات عسكرية. فشارك في مؤتمر عسكري عقده نائب الملك لإيجاد حل لمواصلة المذبحة الإمبريالية العالمية. ثم يشفع ذلك برسالة مفتوحة إلى نائب الملك يقول فيها: " لو أستطيع إجبار مواطني على التراجع، فلزهم بسحب جميع قرارات المؤتمر وبالكف عن الهمس حول الحكم الذاتي أو الحكومة المسؤولة زمن

الحرب. سأرغم الهند على أن تضحي بكل أبنائها الأصحاء في سبيل الإمبراطورية في هذا الوقت العصيب. وأنا على يقين بأنه بفضل هذا التدبير من جانبي ستصبح الهند أفضل أعضاء الإمبراطورية وستصبح الاختلافات العرقية من الماضي."

لكن العون الذي قدمته البرجوازية الوطنية للإمبريالية البريطانية لم يمنع لا مذبحه أمريتسار ولا إقامة حالة الطوارئ المرفوفة ممارسات بوليسية عنيفة. فلم تحصل البرجوازية الوطنية على الحكومة المسؤولة التي وعدت بها. وفي عام 1920، انعقد مؤتمر استثنائي لحرب المؤتمر الوطني الهندي ليصادق على برنامج المقاومة السلبية الغاندي وقوامه مقاطعة البضائع البريطانية ومحاكم الدولة والمدارس. ومنذ ذلك الوقت بدأت تقلبات غاندي. فهو يعلن حملة المقاومة السلبية ليلغها مرارا وتكرارا. وفي سبتمبر 1921 حل الأمير ويلز (وريث العرش) مدية بومباي. فيعلن المؤتمر الإضراب العام فيتوقف العمل تماما في جميع المؤسسات وتغلق مكالات التجارة. ولقد استجابت بروليتاريا بومباي بحماس لنداء المؤتمر، فتتوقف سكك الحديد وتضرب كل المصانع عن العمل. ويشمل ذلك حتى سواق سيارات الأجرة الخاصة في كامل المدينة. وفي ذلك الجو المتسيب، يطوق العمال حفنة من خدم الإمبريالية الذي أرادوا مقابلة الأمير باسم الهند. ونشب صدام بين العمال والبوليس الذي شرع يطلق الرصاص على المتظاهرين. وأسرع غاندي ليكون على عين مكان الصدام. فأوقف العمال وأوقف الإضراب العام. وخاطب "مشاغبي بومباي" بأرذل العبارات متبها العمال بإثارة الصدام ومبررا رمي البوليس الجماهير بالرصاص.

لقد تواترت اضرابات العمال في مصانع المستثمرين المحليين خلال عام 1921. وإذا بغاندي يتوجه إلى العمال عاقدا العزم على تحقيق تعاون طبقي. فهو يقول في خطاب ألقاه في اجتماع بالعمال في مدينة أحمد آباد: "أعلم أن الإضراب حق لا جدال فيه عند العمال الذين يرومون العدل. لكنه يصبح جريمة ما إن قبل الرأسماليون بمبدأ التحكيم... عندما يفهم العامل أن مصلحته لا تختلف عن مصلحة صاحب المصنع، فحينها سينهض بنفسه وبصناعة بلاده". لكن تواتر الإضرابات السياسية يزعج غاندي أكثر بكثير مما

ترعجه الإضرابات الاقتصادية. ففي توصية خص بها عمال حزب المؤتمر الذين وجدهم مولعون بالإضراب السياسي، قال فيها: "لا يلزمنا قدرا كبيرا من الجهد الفكري لفهم كيف أن من أشد الخطر أن نستخدم العمال لأغراض سياسية وهم الذين ليس لهم معرفة بالوضع السياسي في البلاد ولا هم مستعدون للعمل في سبيل المصلحة العامة". بسبب خوف البرجوازية من نمو الحركة البروليتارية ونمو وعيها الطبقي، والتفكير في أن مع تطور النضال الوطني الثوري سيفلت العمال من قبضة القيادة البرجوازية لينتقلوا عفويا إلى الدفاع عن مصالحهم الطبقية، بسبب كل ذلك، شرع غاندي يبذل الجهد ليحصر الحركة البروليتارية في إطار الضيق للمهمات الوطنية البرجوازية.

وأي كان أمر غاندي، عن وعي أم عن غير وعي، فإنه موضوعيا بلغ مرماه وهو تشتيت نضال البروليتاريا الطبقي وحصر مداه واستنفاده في مفاوضات السلم والزاعات الصغيرة مع الأعراف. أما إضرابات التضامن فهي تعني قبل كل شيء أن العمال قد تخطوا حدود مصالحهم المهنية الضيقة والمباشرة. لذا، يعدّ غاندي العدة ضد إضرابات التضامن. فحسب غاندي، "لم يبلغ العمال والحرفيون في الهند مستوى الوعي الوطني الذي لا غنى عنه حتى ينجح إضراب التضامن". ولقد نطق غاندي بذلك في وقت هزت فيه البلاد حركة إضراب هائلة شارك فيها، حسب إحصائيات 1921 الرسمية أكثر من نصف مليون عامل، وانخرطت فيها حتى أكثر العناصر تأخرا وبؤسا من البروليتاريا الهندية وهم الأجراء الزراعيون: عشرات الآلاف غادروا مزارع الشاي في آسام.

ورغم ذلك، كان من الصعب على أفكار غاندي أن تنغرس في البروليتاريا. ولقد اشتكى غاندي نفسه من أن العمال يجدون أفضل تطبيق لمبدأ السلم في الاعتصامات والصفعات "السلمية" التي يسدها العمال المضربون لخرجي الإضراب. لذا، كان من الأسهل عند غاندي أن يهتم بالحركة البروليتارية هنالك حيث يوجد صلب البروليتاريا الكثير من العناصر الحرفية المفلسة وهي الأكثر تقبلا لمذهب غاندي. وإن وضعنا من هذا القبيل ليووجد في أحمد آباد حيث يوجد مركز نسيج هام في ولاية بومباي. وفي

أحمد آباد تنقف على رأس النقابات التي ألفها غاندي إمراة ابنه صناعي كبير عرف عنها تقديمها العون والصدقات. فلم تستطع الحركة العالمية أن تتخلص من تأثير الغاندية المخدر ولم تتخبط بعد في اتحاد نقابات عموم الهند. فخلال أكبر إضراب لعمال بومباي، حيث شارك فيه أكثر من 200 ألف عامل، ظلت أحمد آباد هادئة وكانت بمثابة مثال لتشتيت العمال يحتذى به عند صناعي بومباي. أما موقف الغانديين من الفلاحين، فذلك آخر مختلف. فجوهر الغاندية نفسه إنما هو أقرب إلى الفلاحين أكثر من البروليتاريا. فمنذ بداية تعاظم الحركة الثورية توجه الغانديون إلى الفلاحين لا بصفتهم المحرك الأساسي للثورة (فهو ما محرك الثورة والهيمنة في الثورة غريبان عن الغاندية)، ولكن على كل حال بصفتهم الطبقة الرئيسية النشطة في الحركة الوطنية.

برنامج العمل الذي طرحه غاندي كان موجها أساسا للفلاحين، وقوامه ما يسمى "العصيان المدني للسلطة". ولقد جرى فهم ذلك على أنه رفض خاص للإمتثال للقوانين التي يعتبرها "الشعب" قوانين "غير عادلة". لذا، فإن تنظيم التجمعات وعقد الاجتماعات رغم حضرها هو مثال للعصيان المدني. ومثال آخر هو انتحال أسماء الجرائد غير المرخص لها وتوزيعها مثلما أوصى بذلك غاندي في عام 1921.

ولا يجب، بأي وجه من الوجوه، أن نخلط كل هذه الأنشطة بالعمل غير القانوني بالمعنى الذي نعطيه نحن لذلك. يجب أن تجري التجمعات والاجتماعات علنا. ولقد فرض غاندي تسجيل عناوين دور النشر والمطابع كاملة على المنشورات غير المرخص فيها. كل هذه الحمافة يُزعم أنها تهدف إلى إبراز نوايا القوميين للعالم أجمع. والحق أن هذا البرنامج إنما كان يرمي كما يقول غاندي لارباك الحكومة حتى يحصل "تغير في مزاج" قادة الهند البريطانيين. أي بإيجاز لخلق ظروف ملائمة للتفاهم مع الإمبريالية.

لقد تمحور برنامج "العصيان المدني" حول شعار عدم دفع الضرائب للحكومة. ولقد استهدف هذا الشعار الريف بالأساس، ولعب بالفعل دورا عظيما في ثورة الجماهير الفلاحية. ولقد كان غاندي على وعي بأنه يلعب بالنار، وهو ما جعله يتعامل مع شعار عدم دفع الضرائب بحذر عال، حتى أفقده أهميته الثورية. فرغم أن غاندي كان قد

أدرج هذا الشعار في برنامجه منذ البداية، إلا أنه لم يستعمله إلا في عام 1921، وبعد طول تردد. وحاول في ذات الوقت أن يتخذ كل التدابير حتى يتفادى نتائج الثورة. فلم تقع دعوة الفلاحين إلى رفض دفع الضرائب إلا هنالك حيث تسود فكرة المقاومة السلبية سيادة تامة. ولقد العلامات الخارجية للحالة الذهنية المنتشرة صلب الفلاحين هي اللباس المحلي وغلق جميع نقاط بيع الخمر. لكن حتى عندما جرى تحقيق هذه الشروط في بعض المناطق، مما يعني خضوع الفلاحين المحليين كليا لتأثير حزب المؤتمر، لم يقيم غاندي إلا بتجربة اختبارية لا غير. فخلال كامل فترة تعاظم الحركة، لم يطلق حزب المؤتمر شعار عدم دفع الضرائب إلا في أبرشية باردولي، وهي مسقط رأس غاندي، وبعد جرى التثبت من أن جميع الفلاحين هناك قد ارتدوا ذات اللباس المحلي، وأن لكل منهم لوازم الغزل في المنزل، وأغلقت معظم نقاط بيع الخمر. رغم ثقة غاندي في إخلاص الفلاحين لأفكاره، ورغم جميع الاحتياطات التي اتخذها، ورغم حقيقة أن القوميين كانوا على رأس المنظمات الفلاحية أينما وجدت، فقد خيب الفلاحون، شأنهم شأن البروليتاريا، آمال الغانديين. في الهند، حيث نصف المساحة المزروعة في البلاد في أيدي حفنة من المالكين العقاريين المحليين الذين يسيطرون على 60 في المائة من سكان ريف كامل البلاد في شبه عبودية، وحيث الإمبريالية البريطانية، ممثلة في الحكومة، تملك احتكار ثلث الأرض المزروعة، فإن القضية الزراعية هي محور الثورة الوطنية. وعلى طريقة العمال، الذين توقفوا عن العمل مع الصناعي المحلي وغالبا ما شنوا إضرابا اقتصاديا ضده، كذلك أدرك الفلاحون، سريعا، أن أعوان الجباية والمالكين العقاريين مصاصي الدماء هم "واحد من حيث الجوهر". في بعض المناطق، أدت العداوة الدينية والروابط القبلية صلب الفلاحين إلى حجب طبيعة نضال الفلاحين الحقيقية.

لكن في مناطق أخرى ألف الفلاحون، عفويا، منظماتهم الطبقة الخاصة وطرحوا مطالب تخص الإصلاح الزراعي واضحة بقدر معين. وفي أوج الحركة الثورية، طالبوا حتى بالأرض. وفي المقاطعات، لا يطرد الفلاحون أعوان الجباية فحسب، بل يتوقفون

أيضا عن دفع الإيجار للمالكين العقاريين المحليين، ويعلنون مقاطعة عامة لهم، ويحرمونهم من الخدمات المجانية والمدفوعة التي تلتزم القرية بتقديمها لهم. وما إن بدأت هذه الحركة حتى خاطب غاندي فلاحى الاتحاد (مارس 1921). وجرى توزيع الخطاب بالآلاف النسخ في القرى. ولقد طلب غاندي من الفلاحين في ذلك الخطاب، ألا يستخدموا القوة المادية ضد خصومهم (أي الزيمندار)، وألا يرفضوا تلبية طلباتهم العادية، وألا يتأخروا في دفع الإيجار للمالكين العقاريين، وأن على الفلاحين أن يتذكروا أن مهمتهم هي تحويل الزيمندار إلى أصدقاء لهم. فطالما لم يقع إعلان العصيان المدني بعد، وجب عليهم أن يمتثلوا لجميع أوامر الحكومة وأن يدفعوا لها الضرائب، وما إلى ذلك.

مع نهاية عام 1921 كانت الحركة الوطنية قد بلغت مدى غير معتاد. وبلغ تعداد أعضاء حزب المؤتمر الوطني الهندي 10 ملايين عضو. وما من قرية إلا وكان إسم غاندي معلوما فيها. والحكومة الأنجلو-هندية، إذ تقمع الحركة الجماهيرية بوحشية فإنها تدع دوما قاداتها في حالة فرار، آملة في الوصول إلى تفاهم معهم. لكنها إذ تقدر استحالة مزيد التأخير، تشرع في الزج بقادة حزب المؤتمر في السجن الواحد تلو الآخر. ومن بين جميع القادة الرئيسيين ظل غاندي الوحيد طليقا. وفي ديسمبر 1921، أعلن المؤتمر الوطني العصيان المدني في كامل البلاد ويمنح غاندي سلطات مطلقة لقيادة الحركة باستثناء الحق في التفاوض المنفرد مع الحكومة.

في الواقع، كان المؤتمر الذي انعقد في أحمد آباد هو آخر انفجار للجهد الثوري عند البرجوازية الوطنية. فحركة الإضراب العمالي، بعد كانت موجهة ضد المستثمرين الإنجليز، انقلبت وجهتها ضد الصناعيين المحليين أيضا. والحركة الفلاحية المتعاطمة والمنتشرة سريعا من محافظة إلى أخرى، أصبحت تمثل تهديدا مباشرا لوجود المالكين العقاريين المحليين. لكن الحركة الفلاحية جرى إرباكها جديا، وفي ذات الوقت، من جانب البرجوازية المحلية وثيقة الارتباط بالملكية العقارية، ومن جانب المثقفين البرجوازيين الصغار، فمعظمهم في الهند ينحدرون من أدنى فئات المالكين العقاريين. لذا، فالرغبة في خنق الحركة الفلاحية وإيقاف الثورة الزراعية الوشيكة قد وُحِد كل الطبقات

المحلية السائدة. فشرعوا في ضربها حتى التراجع. واستخدموا الاشتباك الدموي بين الفلاحين والبوليس في عموم البلاد. وفي المقاطعات التي أجهز فيها على 20 نفر من البوليس في مصب النفايات، طالبت البرجوازية المحلية غاندي بالتخلي عن قرارات حزب المؤتمر في أحمد آباد وإيقاف الحركة. واستسلم غاندي. فبعد شهر ونصف من مؤتمر أحمد آباد، تبنت اللجنة التنفيذية لحزب المؤتمر قرارا شهيرا عرف باسم قرار باردولية. ولقد دعا ذلك القرار إلى تعليق جميع التجمعات والمظاهرات الجماهيرية والإضرابات وعدم دفع الضرائب، وبشكل عام كل ما كان معلوما تحت ما يسمى بالعصيان المدني. لكن النقاط الرئيسية في القرار كانت تتعلق بنشاط الفلاحين. فقد أعلنت اللجنة التنفيذية لحزب المؤتمر أن عدم دفع الإيجار للمالكين العقاريين يتعارض مع قرارات حزب المؤتمر، وأكدت للزمندان أن الحركة التي يقودها حزب المؤتمر ليست، بأي حال من الأحوال، موجهة ضد حقوقهم القانونية، وأنه حتى في حالة عدم الرضا عند قسم من الفلاحين، فإن حزب المؤتمر سيطلب منهم التقدم إلى محكمة التحكيم.

ولما كانت تلك القرارات مطابقة لمصالح المثقفين البرجوازيين الصغار فقد جرى التصديق عليها من جانب كامل جهاز حزب المؤتمر الممتد في كامل الهند.

لكن في مناطق مثل البنجاب أظهر حزب المؤتمر عجزا عن إيقاف تصرفات الفلاحين على الفور. لكن خيانة القادة سددت للحركة الوطنية الثورية بأكملها ضربة ساحقة لم تتعافى منها. وبعد شهر من المصادقة على قرار باردوليان، تم الزج بغاندي في السجن أيضا. فاعتقاله الذي كان سيثير غليان الملايين قبل شهرين، لم يؤد حتى إلى إثارة مظاهرة. وبعد خيانة القادة، لم يعد من الصعب على الحكومة أن تسحق تمرد جماهير العمال والفلاحين غير المنظم. وموازة لهزيمة الثورة الهندية الأولى انتهى عمليا الدور الحثيث لغاندي وتعاليمه. وكقابل لخيانتها للثورة، حصلت البرجوازية على عدد من التنازلات من جانب الإمبريالية البريطانية وانتقلت إلى طريق النضال الدستوري. لقد جرى استنفاد غادي حتى النهاية ثم أُلقي به كقشرة ليمون لا فائدة منها. ولقد فهم

ذلك غاندي بنفسه فخلما غادر السجن، ابتعد السياسة. ورغم ذلك، لا تتراجع البرجوازية الهندية عن استخدام حتى ما تبقى من نفوذ بأُس عند غاندي عندما تحتاج إلى ذلك. ففي نهاية العام الماضي، أحضر غاندي (للمرة الثانية منذ إطلاق سراحه) على وجه السرعة كراع رئيسي لتهدئة القسم البرجوازي الصغير من حزب المؤتمر غير الراضين عن تكتيك القائد الخائن. وكان القرار الذي قدمه غاندي ووافق عليه حزب المؤتمر في ديسمبر 1928 يكرر ذات الهراء القديم حول العصيان المدني في جو من السلم. لكن حتى جريدة إلى الأمام، لسان حال حزب المؤتمر، كانت قد سخرت منه جهرا.

إن المظاهرة القوية التي شارك فيها 20 ألف عامل واقتحموا قاعة الاجتماعات في المؤتمر الأخير في كلكتا وفرضوا الاستماع إلى صوتهم رغم تواجد غاندي "المقدس"، إنما تبين كيف أن البروليتاريا في الهند قد تحررت بسرعة من تأثير أفكار غاندي المفسدة. وإن رفض عمال النسيج في بومباي قبول وساطة غاندي في الإضراب الحالي إنما هو خطوة رئيسية أخرى على هذا الطريق. ولا يزال يتعين خوض صراع طويل وشرس ضد الغاندية في الهند، لأنها لم تنكشف بعد للجماهير بطريقة ثورية. ولا يزال غاندي ومساعدوه، اللذان تلقيا ترقية اجتماعية من البرجوازية الوطنية، قادران، في بعض الأحيان، على إخماد الروح الكفاحية عند الجماهير المستيقظة. في الهند، أكثر من أي بلد آخر، يموت القديم ببطء، وفي الأثناء، يتمسك الجديد بإصرار. لكن عندما تظهرت على لافتات التظاهرات العمالية شعارات من قبيل: لتسقط أبواق نفاق البرجوازية! تحيا الجمهورية السوفييتية الهندية! فذلك إنما يعني أن الغاندية قد أجهز عليها سياسيا في الهند.

المستقبل ليس من نصيب أيديولوجية البرجوازية الصغيرة المتمثلة في عدم المقاومة، بل هو من نصيب النظرية العمل الثوري العظيمة التي تناضل تحت رايتها الطليعة: البروليتاريا العالمية.

تكتسب نظرية الماركسية واللينينية المزيد والمزيد من المؤيدين في الهند. ولن يكون وقتا طويلا حتى يتطور حزب شيوعي قوي في الهند، فتحول البروليتاريا الهندية، تحت قيادته، سلاح النقد اللاذع للنظام الإمبريالي الاستعماري إلى نقد بنار الثورة.

